من الفضل، كما الفرض أولى من الندب، أولوية حقيقية دونما تأويل، خلاف الأولوية التنازلية في حقل القدرة.

وهنا يتبين المعني من ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث المثل في الأصل هو الصفة، فعلية كما هنا حيث السماوات والأرض وما فيهما هي فعليات صفات الله، أم وذاتية كما في النحل ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

فمثله المطلق كما هنا يعم صفات ذاته إلى صفات فعله، ومثله في السماوات والأرض يخص صفات فعله.

فأمثال الله في السماوات والأرض بدء وإعادة كلها عالية، ولكن الإعادة هي من المثل الأعلى وهو العدل فإنه أعلى من الفضل وأهون، وكما أولياءه المقربون السابقون وقد يروي عن أسبقهم وأقربهم إلى الله محمد ﷺ قوله: «نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى»[2]، فهم مثل أعلى ممن دونهم من المؤمنين، والعدول من هؤلاء مثل أعلى ممن لا يعدل تماماً وهكذا، ثم المثل يعم من ناحية أخرى صفات الفعل التشريعية إلى صفات فعله التكوينية، فالشرعة التوراتية مثل أعلى من الشرعة الإبراهيمية، كما الشرعة القرآنية هي مثل أعلى من كل شرعة إلهية.

وكما الإنسان ككل هو مثل أعلى من الناحية التكوينية ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٨٠ في عيون الأخبار بإسناده إلى ياسر الخادم عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يا علي! أنت حجة الله وأنت باب الله وأنت الطريق إلى الله وأنت النبأ العظيم وأنت الصراط المستقيم وأنت المثل الأعلى، وفي العيون في الزيارة الجامعة السلام على الأئمة الهدى... وورثة الأنبياء والمثل الأعلى، وفيه (٨١) عن العيون عن عبد الله بن العباس قال قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال في آخر خطبته: ...

أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١] ومن الناحية التشريعية إذ شرع له أحسن الشرائع بين كافة العقلاء، وحين يشاركه بعضهم كالجن وسواه في شرعته فهو الأصل فيها رسالة ومرسلاً إليه.

ثم ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قد تكون كما هنا، الأفضل بين أمثاله تعالى، كما الإعادة مثل أعلى من البدء، أم الأعلى من مثل غيره، فصفاته الفعلية - وهي كل خلقه بمختلف أمثاله الأدنى والوسطى والعليا - هي أعلى من صفات خلقه، وكما أن صفات ذاته وذاته أعلى ممن سواه.

وأمثال الله تعالى بكل مراتبها حسنة وفق طليق العزة والحكمة، وأمثال غيره بين سيئة وحسنة هي طبعاً دون أمثال الله: فـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾[٢] إذ يرجحون البدء الفاني وهو من فضله، على الإعادة الباقية وهي من عدله، ترجيحاً للفضل المؤقت في ذلك الخلق العظيم دونما غاية مقصودة إلّا حياة ضئيلة هزيلة هي في الحق خلاف الفضل، ترجيحاً على العدل في الإعادة وهي الغاية المقصودة من البدء ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[٣] عدلاً وفضلاً بواقعهما الطليق العميق.

وكما إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٤] كذلك ليس كمثله مثل، ﴿وَلَهُ﴾ السابقة على ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تفيد الحصر، فهو «رب المثل الأعلى عما به مثلوه - ولله المثل الأعلى - الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم، فذلك المثل الأعلى»[٥].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.
(٣) سورة طه، الآية: ١٥.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٥) نور الثقلين ٤: ١٨٠ في كتاب التوحيد باسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وقوم وصفوه بيدين فقالوا: يد الله مغلولة - وقوم وصفوه بالرجلين=

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ المتخذين لله شركاء ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثل قريب وهل هناك مثل أقرب من أنفسكم، دون حاجة إلى رحلة قريبة أو بعيدة أم تفكير عميق فإنه مثل كأبسطه وأقربه إليكم بين كافة الأمثال وهو: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يشاركونكم فيما تملكون، رغم أنهم أنفسهم مما تملكون ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ كشركاء سواء فيما يتصرفون، ثم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في المزيد من التصرف فيما تملكون ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنتم المالكين في أموال مشتركة بينكم؟

وذلك سؤال التنديد التجهيل عمن يشركون بالله خلقه فيما يختص بالله من ربوبية، لهم ما لله من التصرف في ملكه، فيخافهم الله كما يخاف من شريك، رغم أن الشركة بين المالكين والمماليك أمر ممكن، وبالنسبة لله مستحيل ذاتياً وصفاتياً.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ آياته تعالى ويتدبرون.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

ليس أنهم اتبعوا عقولهم في اتخاذهم لله شركاء ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾

= فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنها ارتقى إلى السماء ووصفوه بالأنامل فقالوا: إن محمداً ﷺ قال: اني وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: رب العرش عما يصفون - يقول: رب المثل الأعلى...

في هذه القسمة الضيزى ألّا يرتضوا لأنفسهم شركاء من مماليك، ثم يفرضون لله شركاء.

اتبعوا هؤلاء ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ دون عقولهم، اتّباعاً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ فحتى لو اتبعوا أهواءهم بعلم ما كانوا مشركين، وذلك هو الضلال البعيد.

إذاً ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ فإنهم زاغوا باتباعهم أهواءهم بغير علم مقصرين ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1] وأضلها أن ختم عليها بكفرهم فهم لا يهتدون ﴿وَمَا لَهُم﴾ حين يضلهم الله ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم إلى الحق.

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾
مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ
﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ
ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾
ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ
ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

تأتي ﴿فَطَرَ﴾ بمشتقات لها في آياتها العشرين، وما أتت ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ إلّا في هذه اليتيمة المنقطعة النظير، مهما نجد الكثير من أحكام الفطرة كما هنا في الآية (٣٣) ثم وأشباهها في سائر القرآن.

لذلك فحق لها أن تنفرد ببحث فذّ وقول فصل، تحوم حولها كافة البحوث حول الفطرة وميزاتها وأحكامها، حيث تظهر في مسارح البراهين كاقوى برهان يصدع به القرآن، حيث لا تقف له القلوب، ولا تملك رده النفوس، تلك الحجة البالغة التي تتبناها الفكر والعقول، ومن ثم كافة الرسالات الإلهية في كل الحقول، ولولاها لسقطت الحجج عن بكرتها، وتساقطت البراهين عن برهنتها، ولأنها أعمق الآيات الأنفسية وأعرقها، حيث تتبناها سائر آياتها، كما تتبناها الآيات الآفاقية كلها.

فالفطرة هي رأس الزاوية من مثلث الإنسانية بدرجاتها، ثم الزاوية العاقلة تتبناها وتتكامل على أسها وأساسها، ومن ثم الثالثة: الشرعة الإلهية هي صبغتها الكاملة السابغة.

الإنسان أياً كان حين يفقد العقل - وبطبيعة الحال يفقد الشرعة المتبنّية للعقل - ليس ليفقد الفطرة على أية حال، حال أن العاقل قد يفقد الشرعة ويضل عنها، فالفطرة حجة ذاتية لا تتخلف ولا تختلف في أصحابها، ثم العقل تستبطنها وتستنبطها وتوسّع مدلولها، ومن ثم الشرعة الإلهية ترشدهما

إلى تفاصيل مجهولة لديهما وتكملهما جملة وتفصيلاً، فالفطرة حجة اجمالية بسيطة، والعقل حجة متوسطة وسيطة، والشرع حجة موسّعة محيطة، تصل بهما إلى أعلى معاليهما[1].

هنا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ ذات نسبتين واربع صفات، نسبة إلى الله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ وأخرى إلى الناس: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقد احتفتها أربع صفات: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قبلها و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ بعدها.

فنسبة الفطرة إلى الله توحي بأنها ليست إلّا من صنع الله، لا صنع ولا تأثير ولا تبديل فيها لغير الله، كيف وهي - فقط - خلق الله و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فهي وحي تكويني إلى أعمق أعماق ذوات الناس، كظرف صالح للوحي التشريعي، وهنا التطابق التام بين كتابي التكوين والتشريع بحق الناس، فالتشاريع الإلهية كلها تفاسير وتفاصيل لها أجمل في الفطرة، لذلك فالحق يقال: إن دين الله فطري إذ يتبنّى الفطرة، ومؤلف الكتابين خلقة وشرعة هو الله الواحد القهار! ومن ثم نسبة الفطرة إلى الناس وبهذه الصيغة السائغة ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ توحي أنها الأصل والناس فرع عليها، فكما النطفة هي أصله في البعد الجسماني، كذلك الفطرة هي أصله في بعده الروحي الإنساني.

إم إنّ ﴿عَلَيْهَا﴾ إيحاء بأن الفطرة ليست مجعولة بجعل ثان بعد الروح،

(١) الدين واحد والشرعة هي عدة متشرعة عن الدين الواحد، ثم الدين أصله دين الفطرة ومن عمالها العقل، ثم أقوى منهما دين الوحي المخطئ للعقل والمكمل لأحكام الفطرة وقد زوّد به آدم عليه السلام إذ لم تشرع له شرعة تفصيلية.
ثم المرحلة الثالثة من الدين هو دين الشرعة، المحتفظ بأحكام الفطرة، المقررة بإثبات الواجبات والمحرمات، والمفرع لكلّ شرعة ومنها بها حسب الحاجيات الوقتية حتى الشرعة الأخيرة التي هي الدين كله بكل التفاصيل الخالدة.
فأول نبي بعث بشرعة من الدين هو نوح وآخرهم الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بل هي مجعولة بجعل الروح، وعلّ الأول أوحى حيث يتضمن أصالتها والروح فرع لها وإن كانا مجعولين بجعل واحد، بل هما أصلاً وفرعاً واحد إذ لا يتفارقان.

وقد أمرنا بإقامة الوجه لها رخاء ولا نكون من المشركين هنا، وبصيغ أخرى كما في غيرها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وهنا عرفات سبع تصد عن جهالات سبع، تحملها آية الفطرة بمواصفاتها الست، فرضاً لمنطلق الدعوة: الرسول الأعظم محمد ﷺ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ...﴾ وإلى الناس أجمعين كضابطة سارية تعم كافة المكلفين: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

والصاروخ الركوب، المنطلق به بينها في هذه الرحلة للطائر القدسي الإنساني هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وسائر السبع زاده في طريقه الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء.

وهذه الست المستفادة بسابعها من آية الفطرة هي: ١ - معرفة النفس، ٢ - وحبها، ٣ - ومعرفة الوجه ٤ - ودينه، ٥ - وحنافته، ٦ - وإقامته، ٧ - وسابعها هي الفطرة.

فما لم تعرف نفسك كما هي حسب إمكانيتك لم تحبّها كما يصح ويحق، ومن ثم تتعرف إلى الدين القيم، وإلى الوجه وإقامته، وإلى الحنافة

(١) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

نفساً وديناً ووجهاً وإقامة أماهيه، فتكمل سفرتك إلى الله بمنطلق الفطرة التي فطر الله، فإلى التنقيب عن آيتها جملة وتفصيلاً، ابتداء بجملتها:

﴿فَأَقِمْ﴾ يا رسول الهدى في معترك العقائد والآراء بين هابطة حابطة خابطة، وبين صالحة عاقلة رائعة بما لها من حجج بالغة، فإنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ . . .﴾ كأوّل قيام وأولاه وأعلاه فانك ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1] وأولى القائمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ . . .﴾[2] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . . .﴾[3] فقيامك هو الذي يقوّم الجماهير ويقيّمهم..

﴿فَأَقِمْ . . .﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وإقامة تجعلك أول القائمين، ومن ثم إلى الناس أجمعين..

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيها الإنسان السالك إلى ربك ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي ارتضاه لك ﴿حَنِيفًا ۚ﴾: مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة، فإنه الحنف خلاف الجنف ميلاً عن الاستقامة إلى الضلالة، ﴿حَنِيفًا ۚ﴾ في نفسك وفي وجهك وفي إقامتها وفي الدين الذي تدين به، فإنها مربع الحنافة في هذه الإقامة البارعة، ومن الدين الحنيف: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ فالدين الحنيف الذي هو الغاية القصوى في هذه السفرة الإلهية، هو التوحيد، وأفضل

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.
(٣) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

ركوب في تلك الرحلة هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لا أنها - فقط - الدين الحنيف، لذلك ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ لا «إلى الدين» وانما إقامته «إلى» تنطلق من ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

وعلّ النصب في ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلاف الجر في «للدين» للتدليل على أنها ليست هي - فقط - الدين حنيفاً، وإنما هي من الدين ومنطلقه الأوّل، كآية أنفسية أولى، ليست قبلها ولا معها أيّة آية أنفسية يبتدء السالك منها، وينطلق عنها إلى الدين القيم الحنيف، الشرعة الإلهية الكاملة، والتوحيد الخالص الناصع.

فقد يعني نصبه نصبه المنصب الأوّل في إقامة الوجه للدين: أعني فطرت الله - الزم فطرت الله - أخصّ من الدين الحنيف فطرت الله، أمّاذا من ناصبات مناسبات؟

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ - «خلق الله» هنا ليس كل خلق الله فإن منها ما يبدّل بحق أو باطل كما هدد الشيطان: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ...﴾. فما هو إلّا دين الفطرة حيث الدين الشرعة هو من الأمر وليس الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1] فمهما كان في سائر الدين تبدّل أو تبديل، كدين العقل والشرعة من الدين، في حق أو باطل، كالعقل الضائع أو الذي تصيبه جنة قاصدة أو قاصرة، وكالشرعة المحرفة أو المنسوخة، ولكن دين الفطرة لا تبدّل فيه ولا تبديل، لأنه المنطلق الأصيل الدائب لدين العقل والشرعة.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ الإقامة بوسيط الفطرة هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الذي لا زوال له ولا اضمحلال، إذ لا ريب فيه ولا نقصان أو بطلان يعتريه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مثلث الدين، فطرة وعقلية وشرعة،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.